المسألة العربية

﴿ مقالة فتاريخ ﴾

الاسلام والجنسية العربية . ابراهيم الخليل عربي . الاخوتان الدينية والجنسية . اتفاق الاسلام والجنسية العربية . مصلحة المسلمين وغيرهم من العرب في تجديد الدولة العربية واحدة . مصلحة المسلمين الاعاجم ورأيهم في ذلك . استقلال لبنان لم تكن عقبة في طلب العرب للاستقلال . لم ينهض العرب للاستقلال في عهد عبد الحميد . انهام الحديو والانكليز بالميل الى استقلال العرب . حال أمراء الجزيرة وزيدية اليمن وزعماء الولايات العربية في ذلك . الخلافة عند أهل الزيدية وأهل السنة . السبب الحقيقي لكون العرب وسكوتهم هو الاسلام وأوربة . ازالة الاسلام لعصبية الجنسية . اجماع العرب على المحافظة على الدولة . أسهم منها . استقلال الحجاز . اتفاق الفقهاء على استقلال الشعوب أو تفويض أمر حكمها اليها

إنني عربي مسلم أو مسلم عربي، فانا قرشي علوي، من ذرية محمد النبي العربي، الذي ينتهي نسبه الشريف الى اسماعيل بن ابراهيم عليهم الصلاة والسلام . وملته الحنيفية هي ملة جده إبراهيم ، أساسها التوحيد الخالص واسلام الوجه لله تعالى وحده، (٢: ٢٩ ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه — اقرأ الآيات الى قوله — ونحن له مسلمون) فاسلامي مقارن في التاريخ لعربيتي — وان من الناس من هو أقدم نسبا في الاسلام، ومن هو أقدم نسبا في العربية، وهم من عدا الاسماعيليين من متقدمي العرب ومتأخريهم، وأما الاسماعيليون منهم فتاريخ عربيتهم واسلامهم واحد او عن اول أب لهم في العرب مسلما ، وقد يقال ان اسلامهم أقدم اذا كان ابراهيم (ص) غير معدود من العرب على ما هو المشهور في كتب التاريخ من أن أول العرب المستعربة اسماعيل (ص) وكأنهم عدوه كذلك لانه ولد في بلاد العرب ونشأ فيها فلم يكن له لسان غير اللسان العربي . ولكن التاريخ يثبت لنا ان أباه ابراهيم (ص) كان يتكلم باللغة العربية ، كما يؤخذ من التاريخ العربي والتاريخ المستنبط من الآثار القديمة ، أما مأخذ ذلك من التاريخ العربي فهو انه أقام في بلاد العرب زمنا أقام فيه الدين وبنى البيت العتيق الذي هو أقدم بيت وضع لعبادة الله وحده في الارض، فمن البديهي انه كان يعلمهم الدين بلسانهم ويخاطبهم به ، وأما مأخذ ذلك من

الآثار القديمة المكتشفة في هذا العصر موضحة للتاريخ للقديم فهي أن علماء الآثار بينوا لنا ان مدنية الكلدان كانت عربية وان (حمورابي) الذي كان ملكهم وصاحب شريعتهم في عهد ابراهيم (ص) كان عربيا، وقد اكتشفت شريعته في بلاد العراق منقوشة على عمود من الحجر الاصم فكانت باللغة العربية لذلك الزمان. وقد جاء في سفر التكوين أول أسفار العهد القديم عند أهل الكتاب ان حمورابي هذا كان في زمن ابراهيم، وانه كان يدعى ملك السلام وكاهن الله العليّ؛ وأنه بارك ابراهيم وان ابراهيم أعطاه عشرا من كل شيء (راجع تك ١٤ : ١٨)

قلت إنني عربي مسلم. فأنا أخ في الدين لألوف الألوف من المسلمين من العرب وغير العرب، وأخ في الجنس لألوف الالوف من العرب المسلمين وغير المسلمين. أما دليل الاخوة الدينية فقوله تعالى (إنما المؤمنون اخوة) وأما دليل الاخوة الجنسية فالآيات المتعددة في سورة الاعراف والشعراء المصرحة بكون الانبياء المرسلين أخوة لأقوامهم المشركين، ولما كان شعيب عليه السلام قد أرسل الى قومه أهل مدين والى أصحاب الايكة من غير قومه اختلف التعبير عنه فقد قال تعالى في سورة الاعراف (٧: ٨٤ والى مدين أخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره) أي وأرسلنا الى مدين أخاهم في النسب شعيبا الخ. وقال في سورة الشعراء (٢٦ :١٧٦ كذب أصحاب الايكة المرسلين ١٧٧ اذ قال لهم شعيب ألا تتقون ١٧٨ اني لكم رسول أمين) ولم يقل أخوهم شعيب كما قال في عاد (أخوهم هود) وفي ثمود (أخوهم صالح) — مثلا — لانه لم يكن من جنسهم

وانني احمد الله عز وجل أن جعل مصلحة العرب السياسية في عصرنا موافقة لمصلحة المسلمين السياسية كما أبينه في هذه المقالة، ولو تعارضتا لقدمت ما يوجبه عليّ ديني على ما تقتضيه مصلحة أبناء جنسي، لانني أرجو بديني سعادة الدنيا والآخرة، وأنا موقن بذلك، ولا أرجو بخدمة جنسي وحده الا الدنيا وحدها، وما أنا على يقين من إدراكها، على انني راض بما آتاني الله منها، أما وقد اتحدتا فخدمة جنسي خدمة لديني ينفعني في الآخرة ان لم ينفعني في الدنيا، وأنا مؤمن بهذا وان كان يخفى على كثير من اخواني المسلمين

مصلحة العرب والمسلمين في الدولة العربية

إنما مصلحة العرب السياسية ان يكون لهم دولة مستقلة ، وهذا أمر بديهي لا يختلف فيه عاقلان ، فالعرب أمة من أقدم أمم الارض وأعرقها في الاستقلال ، ذات مجد عظيم ، ومدنية عالية في التاريخ القديم والحديث ، ولغة ممتازة في لغات العلم والادب ، وشريعة هي أعدل الشرائع المنزلة للبشر ، وقد ضعفت هذه الامة الكريمة وضعفت مزاياها ولغتها ، وأهمل معظم شريعتها وكادت تفنى بفنائها ، كل ذلك لعدم وجود دولة مستقلة لها ، اذ يستحيل ان ترتقي أمة بغير دولة .

ان السواد الاعظم من العرب يدينون دين الاسلام واللغة العربية هي لغة هذا الدين فلا تصح لمسلم عبادة بغير هذه اللغة ، فالدولة العربية تحيا لغة القرآن ، وتحيا بحياتها شريعة الاسلام . فمن البديهي اذاً ان يكون الخير كل الخير للمسلمين في هذه الدولة اذا وجدت ، وان عقلاء المسلمين من غير العرب يعلمون هذا ولكنهم يرونه الآن متعذرا أو متعسرا ، ويخشون كما كان يخشى مسلمو العرب ان يكون السعي له مفضيا الى إضعاف الدولة العثمانية التي لم يبق للمسلمين دولة غيرها فيكون مثل الساعين كمثل من له دار تكنه فهدمها ليبني خيرا منها فعجز عن البناء وأمسى في العراء معرضا لما يجني على حياته ، ولكن جمعية الاغرار المغرورين (جمعية الاتحاد والترقي) ما زالت تهدم من آمال العرب في بقاء الدولة وفي كون بقائها خيراً للاسلام والمسلمين حتى دعتهم بل دعتهم[1] الى طلب الاصلاح في الجملة ثم الى طلب اللامركزية ثم الى استقلال الحجاز ، ولا يعلم غير الله ما تكون عاقبة ذلك ، لان العالم كله في طور تغير وانقلاب مجهول ، ولكن المعلوم قطعا ان ما حصل في بلاد العرب هو نتيجة طبيعية لسيرة الاتحاديين لم يكن في استطاعة أحد دفعه كما يعلم مما يأتي

وأما غير المسلمين من العرب فهم الآن كالمسلمين ليس لهم دولة ، ولأن يكون لأبناء جنسهم دولة خير لهم من ان يكونوا تابعين لدولة أعجمية لا يشاركونها في النسب ولا في اللغة ولا في العادات والتقاليد ولا في الوطن الجغرافي[2] ولا في الدين ، ولا الدولة

(١) دعتهم بتشديد العين دفعتهم بعنف

(٢) هذا الوصف احتراز من الوطن السياسي

أعجمية يشاركها بعضهم في الدين والمذهب أو في الدين دون المذهب دون سائر مقومات الامم ومشخصاتها وهم يعلمون أن الدين أو المذهب لا يحملها على جعلهم مساوين لابناء جنسها ووطنها وان كانوا من غير أبناء دينها ومذهبها، ولا يضرهم أن تكون العربية في هذه الدولة الاغلبية للمسلمين من أبناء جنسهم، فان أفراد البشر وجمعياتهم يتآلفون ويتعاونون على مصالحهم بكثرة ما يشتركون فيه من مقومات الامم ومشخصاتها، وما يشترك فيه المسلمون وغيرهم من العرب من المقومات والمشخصات كاللغة والعادات والآداب والمصالح والمرافق الوطنية أكثر مما يشترك فيه غير المسلمين من العرب مع الافرنج الموافقين لهم في الدين، بله الترك المخالفين لهم حتى في الدين، ودين الاسلام دين مساواة في الحقوق وحرية تامة في العقائد. وقد ارتقى غير المسلمين في أرقى دول العرب الاسلامية مدنية الى أعلى المناصب، حتى كان وزراؤهم وأطباؤهم يزاحمون الخلفاء العباسيين بالمناكب، واذا كان لغير المسلمين أغلبية في بقعة من البلاد العربية (كجبل لبنان) فانه يمكنهم ان يكونوا مستقلين مع ارتباطهم واتحادهم بالمملكة العربية فيها استقلالا اداريا واسعا خيرا من الاستقلال الذي نالوه منذ نصف قرن

لو نهض زعماء العرب الى السعي للاستقلال لما تعذر عليهم ارضاء اللبنانيين منهم بذلك وازالة جميع ما في البلاد من اسباب الخلاف. ولو تعذر عليهم ارضاء اللبنانيين في اوائل العهد بالسعي لما كان ذلك موجبا لتركه واليأس منه. ولا اطيل في بيان هذا وكشف غواشي الاوهام عنه لأنه يخرج بي عن المقصد من هذا المقال، واكتفي منه بتذكير الملم بتاريخ سورية الحديث بتلك الحركة العربية التي حدثت في سورية أيام كان مدحت باشا زعيم الترك الاكبر واليا عليها فانهم يتذكرون ان اللبنانيين كانوا في طليعة العاملين، وبرهاننا على هذا قصيدتا اليازجي البائية والسينية

لاجل هذا كان سكون العرب العثمانيين وسكوتهم في الاجيال الاخيرة التي تحركت فيها عصبيات الاجناس وهبت لطلب الاستقلال مثارا لعجب من لم يعرف سبب ذلك السكون من العقلاء.

اتهام الترك للعرب

كان الترك يتهمون العرب بالميل الى الاستقلال دونهم والسعي لذلك وانه

لا يمنعهم منه الا ضعفهم وعجزهم أمام قوة الترك . وقد ذكرت في مقالات (العرب والترك) التي كتبتها في الآستانة ونشرتها في جرائدها ثم في المنار التي لا أعرف لهذه التهمة أصلا الا ماكان من افتراء جواسيس السلطان عبدالحميد وطلاب المنافع عنده أو استغلال أوهامه ، بل أقول ان هذه التهمة لم تكن معقولة في عهد السلطان عبد الحميد لان النهوض بأمر الاستقلال اما ان يكون من جانب الامة بما تتوسل به اليه من الجمعيات السياسية والعصابات المسلحة ، ولم تتعمد الامة العربية لذلك البتة ـ واما ان يكون من جانب الامراء المستقلين بالادارة في بعض الاقطار أومن دونهم من الزعماء أصحاب العصبية، ولم نعلم ان أحدا من أمراء جزيرة العرب أو من الزعماء في الولايات العربية العثمانية كان مظنة أو موضعا لهذه التهمة اذ لا توجد شبهة يعتمد عليها في ذلك. الا ان المفسدين كانوا يتهمون خديو مصر عباس حلمي باشا بذلك فكان يُسمع لهم لان مصر بلاد عربية غنية بالمال والرجال وقد تصدى رأس حكومتها الاخيرة (محمد علي باشا) لحرب الدولة العثمانية فقهرها واستولى على سورية والحجاز وتوغل في الاناضول ولولا الدولة الانكليزية لاستولى على سائر مملكتها ولكن عباس حلمي باشا لم يكن ليطمع بمثل ماطمع به جده الاعلى، بل ولا بمثل ماكان يطمع به جده الادنى (اسماعيل باشا) من الاستقلال السياسي بمصر والسودان فقط لمكان الاحتلال الانكليزي الذي جعل السلطة الفعلية في مصر بيد انكلترة دونه . ولهذا كان الموسوسون والجواسيس يزعمون أنه على اتفاق مع الانكليز في هذا الامر ، وكان كثير من المصريين وغيرهم يصدق ذلك ، ومنهم من لم يرجع عن هذا التصديق الا بعد نشر كتاب (عباس حلمي الثاني) الورد كرومر اذ صرح فيه بأن حياة عباس مع الاحتلال كانت حياة خلاف وشقاق لا يرجى معه اتفاق .

ان المطلعين على الحقائق يعلمون علم اليقين ان عباس حلمي باشا ماكان يسعى لهذا الامر ولا يرجوه، على انه كان يعلم انه لا سبيل له اليه لو تصدى له ، ويعلمون ان من سياسة انكلترة التقليدية بقاء ما للترك من السلطان والسيادة على بلاد العرب وترجيح ذلك على تأسيس دولة عربية جديدة ، وهي لم تجنح الى سياسة العطف على العرب واظهار الميل لمساعدتهم على الاستقلال الا بعد وقوع الحرب بينها وبين الترك بمدة طويلة،

أما امراء جزيرة العرب فقد كان كل منهم راضيا بحاله ولم يكن يخطر ببال أحد منهم أن يعتدي على الدولة فيما وراء حدود امارته ولا أن يسعى لذلك بالاتحاد مع غيره، كما انه لم يكن يسهل على أحد منهم أن تعتدي الدولة على استقلاله أو تحدث في بلاده حدثا ما، لما استقر في أنفسهم من غريزة الاستقلال الموروثة في الامة العربية مع عدم ثقة أحد منهم بأن الدولة تقيم شرع الله في بلادهم ، على ان للزيدية دولة أقدم من الدولة العثمانية مازالت تنصب الائمة من قريش عليها ويعتقدون ان الترك من البغاة الخوارج على الامام الحق، وأهون اعتقاد سائر عرب الجزيرة في حكام الترك انهم ظلمة فسقة مبغضون للعرب . ولكنهم مع ذلك يحبون بقاء الدولة ويتمنون لها القوة والعظمة لاجل صد الافرنج عن البلاد الاسلامية . وقد كان رجال الدولة في العهد الاخير يعتقدون أن الشيخ مبارك الصباح من أشد العرب عداوة للدولة ولكنني لما لقيته سنة ١٣٣٠ منصرفي من الهند أخبرني بما لقيه من عدوان الدولة عليه وتصديها لنفيه من الكويت وان انكلترة منعتها من ذلك بدون طلب منه وانه مع ذلك محافظ على نسبته اليها ورافع لعلمها باختياره ولو شاء لاستبدل به غيره، ومن كلامه في الترك والعرب « نحبهم ولا يحبوننا »

وأما كبراء العرب في ولايات سورية والعراق من العلماء والوجهاء فقد كانوا أشد تعصبا للترك من الترك أنفسهم حتى كانوا يفضلونهم على العرب ويستهزون ما يعرفون من سيئاتهم ، ويكبرون الصغير من حسناتهم ، بل يذكرون لهم فضائل ومناقب لا يعرف لها أصل، منها انهم يعدون بعض ملوكهم من الاولياء ومؤرخو الترك يعدونهم من الفساق. ومما كانوا يذيعونه بين العامة أن الشيخ محيي الدين بن العربي والشيخ عبد الغني النابلسي قد علما بالكشف أن ملكهم يبقى الى قيام الساعة .

تلك حال كبراء البلاد وخاصتها والعامة تبع لهم ، لم يسمع لاحد منهم نأمة ظاهرة ولا دعوة خفية الى عداوة الترك أو القيام عليهم أو الاستعداد لتأسيس حكومة عربية تستقل في البلاد، اللهم الا ماكان قد قيل من أن شيعة الماسون كانت تسعى لجعل الامير عبد القادر خديويا لسورية، وما قيل في عهد ولاية مدحت باشا على سورية من انه كان هو الذي يسعى لجمع كلمة المسلمين وغيرهم للاتفاق على

تأسيس امارة عربية في سورية كالامارة المصرية يكون هو الخديو عليها ، ومن أن رستم باشا متصرف لبنان الاجنبي الاصل كان هو الذي كشف للدولة دسيسة شيخ أحرار الترك وزعيمهم الاكبر ، وترتب على ذلك اخراج السلطان عبد الحميد لمدحت باشا من سورية ، وقيل ان تلك الحركة كانت مدبرة بدسائس الاستانة ليتوسل السلطان بها الى نفي مدحت باشا ثم الفتك به . وفي تلك الاثناء نشرت قصيدتنا الشيخ ابراهيم اليازجي السينية والبائية (راجع ص ٨٣١ م ١٢)

ولما كنت أنشر في الاستانة مقالات (العرب والترك) وأشرت فيها الى هذه المسألة جرى بيني وبين الصدر الاعظم حسين حلمي باشا حديث في هذا الموضوع قال لي في أثنائه انه أقام في سورية عدة سنين أيقن في أثنائها بأنه لا يوجد فيها أحد من وجهاء المسلمين يكره الدولة الا بعض الافراد من بيت المؤيد ومن بيت الصلح، وسائر الوجهاء مخلصون للدولة كغيرهم . ولا أدري من عنى بقوله ذاك . ولم أعلم عن أحد من المعاصرين لنا من أهل هذين البيتين شيئا يبين المراد لنا من قوله، الا أن أحد أفراد البيت الاول كان قد جاء مصر في أوائل عهد مجيئي اليها وأسس جمعية دينية يشترط في أعضائها ترك المحرمات والمحافظة على أداء الفرائض وقد ساعدته على ذلك ولم أكن أسمع منه كلمة تشعر بأن له غرضا سياسيا منها وقد أفادت الجمعية فائدة دينية ظاهرة ، ثم انشق عنها عضو مصري تركي الاصل زاعما ان للمؤسس غرضا سياسيا منها وتبعه على هذا جماعة من أعضائها في القاهرة صاروا يلغطون بذلك. ثم ان المؤسس سافر الى الآستانة ثم عاد الى سورية وأقام فيها. ولو صدق السلطان عبد الحميد انه كان يسعى الى تلك الغرض السياسي لما أفلت من قبضة انتقامه . وانما اتهمه بعض الناس بأنه تعمد القاء كلام لاولئك اللاغطين ليشتهر ويوصله الجواسيس الى السلطان

هذا كل ما نعلم عن سورية في هذا الامر . وأما العراق فقد قيل ان السيد سلمان القادري نقيب بغداد كان يسعى الى تأسيس حكومة عربية وان طلب السلطان عبد الحميد [illegible] كعادة ملوك

من الاجناس الذين تتألف منهم المملكة العثمانية انهم فازوا بما جاهدوا في سبيله الى أن قلب لهم المتغلبون على جمعية الاتحاد وعلى الدولة ظهر المجن وأوقعوهم في هوة اليأس من الدولة

السبب الصحيح

تبين مما شرحناه من الحقائق أن عدم تصدي العرب لانشاء دولة جديدة لم يكن سببه الخوف من قوة الدولة كما كان يتوهم الترك فان العرب أقوى من اليونان والبلغار وغيرهما من الشعوب التي انفصلت من السلطنة العثمانية وصارت دولا مستقلة، ولم يكن سببه تفرق العرب وتعذر اتفاق امرائهم وزعمائهم كما يتوهم الكثيرون منهم ومن غيرهم فلو وجد هذا القصد لكان هو الجامع لهم، ولا الجبل الضارب بجرانه في البلاد العربية فان محمد علي الكبير لما غزا الدولة وكاد يفتحها كلها لم يكن من علماء السياسة والاجتماع ولم يكن الشعب المصري على درجة عالية من العلوم والفنون التي تدفع الشعوب الى الفتح والاستعمار

وانما كان السبب الصحيح لكون العرب وبكونهم عنه طلب استقلالهم وتجديد دولة لهم هو الاسلام وأوربة

دين الاسلام وسياسة دول أوربة سببان مستقلان أو سبب واحد مركب لكل من جزئيه تأثير خاص في صرف العرب العثمانيين عن السعي للاستقلال، ولعله لو انفرد أحدهما لما صرفهم كلهم عن كل سعي وما تعداد لذلك

أما الاسلام فقد أزال من أنفس العرب عصبية الجنسية الا من غلبت عليهم البداوة فانهم بما توارثوه من الغرائز والاخلاق لا يخضعون الا لسلطة رؤسائهم الذين من أبناء جنسهم بل من رؤساء عشائرهم. وأما من غلبت عليهم الحضارة فما زالوا يألفون سلطة الاعاجم من الملوك والسلاطين الذين يتولون أمرهم من قبل الخلفاء العباسيين ويحكمون بشريعتهم ويؤيدون لغتهم ويتركون لغاتهم اليها الى ان هان عليهم الخضوع لسلطة الاعاجم المصرّين على أعجميتهم الذين لا يستمدون سلطتهم من خليفة قرشي عربي وهم الترك، بل هان عليهم ادعاء هؤلاء الاعاجم للخلافة

النبوية ورضوا بذلك واطمأنوا له لانه مع اشرافه على مجموعهم المتفرق من شاهق القوة العسكرية، قد أطل على قلوبهم من سماء الفتاوى الشرعية، وتسرب الى أفكارهم من باب المصلحة الاسلامية، ذلك بأن أكثرهم من المنتمين الى مذاهب علماء السنة الذين يوجبون طاعة المتغلب بالقوة، وان لم يكن حائزا لغير الاسلام من شروط الخلافة الشرعية، ومنها النسب القرشي باجماعهم، ومستندهم في ذلك رعاية المصلحة الراجحة وخوف الفتنة. على انهم مختلفون في عد رعاية المصلحة حجة، أو داخلة فيما ذكروه للقياس من مسالك العلة، ومختلفون في سد الذرائع أيضا. ولما كانت الزيدية لا تقول بطاعة المتغلبين، ولا بمصلحة تبيح ترك اشتراط النسب القرشي العلوي وشرط العلم الديني في أئمة المسلمين، (أي الخلفاء) لم يخضعوا لسلطان الترك ولا دانوا لحكمهم، بل ظلوا ينصبون الائمة الحائزين للشروط الشرعية في مذهبهم، ويقاتلون الترك الذين يتصدون لفتح بلادهم، ولم تستطع الترك ان تغلب أئمة اليمن على أمرهم، بل صالحوا إمامهم الامام يحيى منذ سنين قليلة وأقروه على امامته في قومه ووطنه بعد أن حاربوه وحاربوا سلفه أربع مئة سنة، على ان الامامة لا تتجزأ ولا تتعدد. والحق ان الباعث الاخير لاعتراف أكثر المسلمين بخلافة سلاطين الترك هو كونهم أمسوا حصنا لبقية البلاد الاسلامية في وجه أوربة

وليس من غرضنا هنا أن نبحث في الخلافة وشروطها وانما بحثنا هذا تاريخي اذا ذكرت فيه مسألة شرعية فانما تذكر على سبيل الاستطراد مختصرة بقدر الضرورة، ولم تكن مسألة الخلافة من مواضع بحث طلاب الاصلاح من العرب في السنين الاخيرة خلافا لاوهام الواهمين التي أثارها في مخيلاتهم لغط بعض الكتاب بها في عهد السلطان عبد الحميد لاجل استغلال وساوسه كما تقدم حتى صارت حكومته تمنع نشر كل كتاب من كتب الكلام والعقائد والحديث والتفسير تذكر فيه هذه المسألة. ومن أثر ذلك انه لما طبع كتاب المسايرة للكمال ابن الهمام وهو من أهم كتب العقائد عند الحنفية وكثير الرواج في الآستانة اضطر طابعه بمصر ان يطبع منه نسخا حذف منها بحث الامامة (الخلافة) لاجل بيعها في الآستانة وسائر البلاد العثمانية. وصار بعض الجاهلين في مصر يظن أن ذكر الشروط الشرعية للخلافة ولاسيما شرط النسب القرشي لا يصدر الا من عدو

للدولة وللاسلام أيضا. على أن هذا الشرط مذكور في الكتب العربية والتركية التي طبعت في الاستانة قبل تشديد الحكومة الحميدية في مراقبة المطبوعات وقد ذكر في بعض الكتب المصرية التي طبعت بعد الدستور ومنها كتاب لاسماعيل حقي بك بابان الاتحادي الذي كان مدرسا في مكتب الحقوق وصار ناظرا للمعارف

تكوين الترك للعصبية العربية

فهذا وجه صد الاسلام للعرب عن محاولة الاستقلال دون الترك ، وقد قلت مرارا انه لا يقدر أحد على اعادة هذه العصبية الى العرب أو اعادتهم اليها بعد ان أبعدهم الاسلام عنها الا الاستانة أو تحامل الترك عليهم يبعث العصبية التركية. (١) وقد صدق الزمان هذا القول . واسس الاتحاديون بعصبيتهم التركية واضطهادهم للعرب بناء العصبية العربية أو أحيوها بعد موتها . فان هؤلاء الاتحاديين قد تمرسوا برجالات العرب وشبانهم في الاستانة وغيرها فعلموا من أقوالهم وأفعالهم في دُور الحكومة الرسمية ومدارسها وأندية الجمعية في البلاد العربية أن عزمهم على تتريك العرب كغيرهم بالقوة عزم ثابت لا يرجعون عنه وأنهم جازمون بسهولة تتريك بلاد سورية والعراق في سنين معدودة وما يعسر تتريكه الآن من جزيرة العرب يعد من المستعمرات يوضع له قانون خاص لادارته ولا يكون لاهله ما لسائر العثمانيين من الحقوق المنصوصة في القانون الاساسي . وقد أرسلوا طائفة من طلبة الترك الى أوربة لاجل درس قوانين الاستعمار

بهذا علم نبهاء العرب أن أمتهم ولغتهم عرضة للزوال من المملكة العثمانية — ولا يجهل أحد ان الدين الاسلامي يقوى بقوة لغته العربية ويضعف بضعفها ولا نقول أكثر من ذلك — فتوجهت قلوب كثير منهم لتدارك الخطب وألفوا بعض الجمعيات لذلك ورأى الذين يتحرون هدي الاسلام في أعمالهم أن ما كان مانعا من إحياء الجنسية العربية قد زال وخلفه المقتضي لاحيائها، فقد كان المانع من ذلك اتقاء الشقاق

(١) أذكر أنني كتبت هذا غير مرة في المنار ولكنني لا أتذكر من مواضعها الا ما في ص٢٥٢ و٢٥٣ من المجلد الثالث عشر والعبارة فيه تدل على أنها مسبوقة، والا ما في ص٨٠ من المجلد التاسع عشر

بين العرب وتركها وافضاء ذلك الى زوال الدولة واستيلاء الاجانب على بلادها، وقد وقع ذلك من قبل الاتحاديين أي من قبل الدولة نفسها لانها في قبضتهم فلا معنى لاتهامها وقد حصل، وخلقه المقتضي لاحياء هذه الجنسية وهو وجوب المحافظة على الامة العربية والامة العربية شرعا. ولكن هذا قد يحصل بما دون استقلال العرب بأنفسهم دون الترك وان كان حصولا ضعيفا فلم يكن باعثا على السعي الى تأليف دولة عربية بل الى طلب اصلاح اضطرب في تحديده أفرادهم وجماعاتهم وكان حزب اللامركزية أقصدها وأشدها اعتدالا

وما كان يخفى على أحد من هؤلاء أن مطالبهم معلقة بين الرجاء واليأس وان الحياة إنما هي حيلة الاستقلال لاتحيا الامة ولا ترتقي الامة بدونها، ولكن دونها خرط القتاد. اذ لا تحصل الا بثورة يصطدم بها الترك والعرب اصطداما يخشى أن يضعف الفريقين ويفضي بزوال الدولة واقتسام أوربة لبلادها. ومن ذا الذي يقدم على حمل هذه التبعة الثقيلة التي تنحط من حملها الجبال الرواسي؟ أيجهل أحد من طلاب الاصلاح العرب أن هدم آخر سلطة اسلامية مهما يكن سببه الحامل عليه لايتعب الساعي اليه والقائم به الا لعن مئات الملايين من المسلمين الى يوم الدين؟

لهذا أجمع طلاب الاصلاح من العرب الذين يعتد برأيهم، ويرجى تأثير علمهم، على ان لا يكونوا سببا لسقوط الدولة وزوالها. ولا يسعوا الى ضررها ولا الى اضعافها، وعلى أن يجعلوا همهم في اصلاح أنفسهم، وعمارة بلادهم، مع النصح للدولة والاخلاص لها، وطلب حقوقهم التي أثبتها لهم القانون الاساسي فيها، ليرتقوا ويعتزوا بأنفسهم فلا يستقلوا مع الدولة ان استقلت وتعتز الدولة وترتقي بارتقائهم ان بقيت، وأن يكون جل سعيهم الى ذلك في مجلس الامة بواسطة مبعوثيهم

ثم طرأ على بعضهم اليأس من بقاء الدولة وقوي ذلك وكثر التفكر في عواقبه عند ما طلب البلغاريون الدولة في الحرب وكانت دولة البلغار التي تم لها استقلالها في عهد الدستور تستولي على الأصقاع، وتخطف جرائد أوربة بحقوق بعض الدول الكبرى في بلاد الدولة وخص بالذكر بعض الولايات العربية وطفق المفكرون يتأسى بعضهم بعضا: ما بالنا اذا أقدمت دولة قوية على الاستيلاء على بلادنا كما استولت

ايطالية على طرابلس الغرب وبرقة وليس فيها شيء من أسباب الدفاع ولا يمكن الدولة ولا مصر أن تساعدها على مقاومة المحتلين كما ساعدتهما ،

صدعهم هذا اليأس بعد ان قوي رجاؤهم في الدولة بانتصار حزب الحرية والائتلاف على حزب الاتحاد والترقي وانتزاعه السلطة التنفيذية من يده ، ثم قوي ذلك اليأس واشتد بثورة الاتحاديين على وزارة كامل باشا وقتلهم لناظر الحربية في الباب العالي وتأليف وزارة جديدة منهم بقوة الثورة ، ولولا ان زعماء العرب كانوا مجمعين على المحافظة على الدولة مهما تكن حالها ، لبادروا عندذلك اليأس الشديد الى اضرام نار الثورة على الدولة والجهر بالاستقلال دونها ، لعلمهم بأنه لم يبق عندها في ذلك الوقت سلاح ولا ذخيرة تدافع بهما عن عاصمتها ، فكيف تقدر على تجريد عسكر يخمد نيران الثورة في البلاد البعيدة عنها ؟ ولكنهم لم يفعلوا ، ولم يكن الاسلام هو المانع لهم من التصدي لتأسيس دولة عربية وهم يائسون من بقاء الدولة التركية ومن اقامتها للاسلام ان بقيت والاتحاديون غالبون على أمرها ، فان افتاء مذاهبهم بوجوب طاعة المتغلب خوف الفتنة التي ترجح مفسدتها على المصلحة لم يعد ينطبق على حالتهم مع الدولة ، ولكن المانع الحقيقي هو الخوف من أوربة أن تغتنم الفرصة وتستولي على البلاد

فتبين بهذا ان ماكان يصد زعماء العرب من المسلمين عن التصدي لتأسيس دولة عربية أمران : الاسلام والخوف من أوربة ، وكان الرجحان في بعض الاحوال للاول وفي بعضها للثاني ، ولكنهما كانا في عامة الاحوال والاوقات مانعا واحدا أو سببا واحدا مركبا من أمرين كل منهما يقوي الآخر

وبعد حرب البلقان أقدمت الحكومة الاتحادية على عقد الاتفاق بينها وبين الدول الكبرى على الاعتراف لهن بالنفوذ الاقتصادي في أعظم الولايات العربية ليقرضنها عشرات الملايين من الجنيهات ، وصرح بعض كبار السياسيين في جرائد أوربة بأن مناطق النفوذ الاقتصادي تتحول الى مناطق نفوذ سياسي عند سنوح أول فرصة لذلك ، فثبت عند زعماء العرب ان الاتحاديين شرعوا في تنفيذ ماهددوهم به من بيع بلادهم وترقية الترك بثمنها كما فعلوا ببيع طرابلس الغرب وبرقة ، فاشتدت عزيمتهم على طلب الاصلاح وعقدوا المؤتمر العربي في باريس لذلك فذعرت الحكومة

الاتحادية ولجأت الى الحيلة والخداع لضعفها في ذلك الوقت وكان من أمر نتيجة المؤتمر ما هو معلوم من اعتراف جمعية الاتحاد ثم حكومتها ببعض حقوق العرب في الدولة ووعدها باعطائهم تلك الحقوق بالتدريج وخداعها للسيد عبد الحميد الزهراوي رئيس المؤتمر وتصديقه إياها بما وعدت به

الحرب الأوربية واستقلال الحجاز

ثم ظهرت بوادر الحرب الاوربية وعزم الدولة على الدخول فيها فبادرت الى كتابة مقالة نصحت فيها لاخواني العرب بالكف عن طلب الاصلاح في حال الحرب وتأييد دولتهم بالاجماع فكان لها تأثير عظيم. ولكن الاتحاديين لما دخلوا في الحرب وجعلوا الاحكام في المملكة عسكرية عرفية جعلوا ذلك وسيلة للتنكيل بالعرب والارمن حسب خطتهم المقررة منذ سنين فصلبوا في سورية جميع من عرفوا من المطالبين بالاصلاح من نابغي العرب ونفوا من البلاد أرباب البيوتات والثروة الكبيرة وصادروا أموال الناس وغلات أرضهم، وفعلوا مثل ذلك في العراق، ثم تحرشوا بالحجاز، فبادر الشريف أمير مكة المكرمة الى اعلان استقلال الحجاز بعد النصح لجمال باشا الحاكم العسكري الاتحادي المطلق في سورية ولحكومة الآستانة بالكف عن الفظائع في سورية والعراق فلم يقبل نصحه، وانتهى أمر الشريف باعتراف دول الحلفاء باستقلاله التام وبما بايعه به أهل البلاد من جعله ملكا عليهم

وقد نشر الشريف قبل المبايعة منشورا بين فيه سبب قيامه مع الحجازيين بما قاموا به ففهمنا منه انه كان موافقا لما أجمع عليه من دونه من زعماء العرب من الرغبة في المحافظة على بقاء الدولة واتقاء ان يكون زوالها أو ضعفها من قبل العرب، فان استقلال الحجاز الذي أنتجته الضرورات لا يمكن ان يكون سببا لزوال الدولة وهي داخلة في أحد الحلفين اللذين انقسمت اليهما دول أوربة الكبرى. فان النصر لأحد الحلفين على الآخر انما يكون بانتصاره عليه في أوربة، واستقلال الحجاز لا يقدم في ذلك ولا يؤخر، ولكنه افاد العرب فوائد عظيمة فصدق عليه قولنا إما ان ينفع نفعا كبيرا أو صغيرا واما ان لا يضر. وقد ثبت عندنا ان استقلال الحجاز كان سببا لكف الاتحاديين عن محاولة ابادة العرب من سورية والعراق الآن وتخفيف ما كانوا شرعوا

فيه من المذابح والفظائع وكان هذا من أجلّ منافعه التي تربي على ما ترتب عليه من سفك الدم الذي اجتهدت الحكومة العربية الحجازية في اجتنابه بقدر الطاقة

عاقبة الحرب استقلال الشعوب

ثم طرأ بعد استقلال الحجاز أن أعلن دول الاحلاف أنهن قد اتفقن على حرية الشعوب واستقلالها في أمر حكومتها وذكروا العرب والارمن منها. وهذه قاعدة عادلة عظيمة الشأن اذا نفذت على وجهها الصحيح وكانت الدول كلها متضامنة في حفظها بما يتعاهدن عليه في مؤتمر الصلح، وأولها بعضهم بمعنى أن لا يحكم شعب الا بالطريقة التي يختارها لنفسه ، ولكن الوقوف على آراء الشعوب المغلوبة على حريتها متعذر في هذه الاوقات التي تخضع فيه للاحكام العسكرية، وقد علمنا ممن فر من سورية والعراق الى مصر والحجاز ومن أسراهم بمصر ان العداء بين العرب والترك قد عم وتمكن فلا مطمع في زواله ولم يبق في العرب من لا يرغب في الاستقلال دون الترك . ومن البديهي انه لا يوجد شعب في الدنيا يختار على الحرية والاستقلال شيئا إذا تيسرا له ، ولكن يوجد في كل أمة أفراد من عبيد المال ، ومن الجاهلين الذين يخدعون بزخرف الاقوال، فيمكن أن يستخدم من هؤلاء وأولئك بالترغيب والترهيب طائفة تقول ما تؤمر أن تقوله، ولا يمكن أن يكون اختيار هؤلاء للعبودية بتسميتها بغير اسمها حجة على الشعب، ولكن القوة تحتج على الضعف بما تشاء ، وانما يعرف رأي الشعوب في بلاد الحضارة من قبل أحزابها السياسية ، وليس للشعب العربي العثماني حزب سياسي عام الا (حزب اللامركزية) ويمكنه أن يبين رأي الشعب ان استطاع زعماؤه أن يعربوا عن آرائهم، وله جمعيات موضعية خاصة كجمعية الاتحاد اللبناني بمصر وأمريكة والنهضة اللبنانية في أمريكة فهي تمثل آراء جمهور اللبنانيين. والدول اذا أخلصت في تنفيذ هذه القاعدة تقررها وعند ما يجتمع زعماء كل أمة تنال استقلالا جديدا لتأسيس حكومتها العليا يعرف رأيهم في شكلها ، ولا يعرف معرفة صحيحة بغير ذلك . فاذا انتهت الحرب بذلك كانت عاقبتها على البشر خير العواقب . والله الموفق